الشيخ الغزالي
وقضية تحرير المرأة المسلمة

أ/ يحياوي فاطمة
جامعة وهران

الملخص:

من منطلقات الشعور بأهمية دور المرأة المسلمة في مؤسسة البناء الاجتماعي والتأهيل الحضاري... كان اهتمام الشيخ محمد الغزالي بقضية تحرير المرأة. فقد شغلت قضيتها على تنوع مجالات تمظهرها حيزا هاما في تفكيره وأنشطته العلمية والاجتماعية، الأمر الذي يجبر كل دارس أو متابع لفكره على ملاحظة هذه المساحة وحدودها والتوقف بإزاء خلفيتها ومراميها في سياق البحث عن ترجمات منهجية وتأويلات عميقة لدلالاتها المتنوعة بشتى أبعادها في سياق مشروعه الفكري.

Sheikh Mohamed al-Ghazeli began his interests about the issue of woman's liberation from the premises feelings of the importance of the role of the Muslim woman in the institution of social construction and civilized rehabilitation.

Her issue played a great role on the diversity of areas as well as on Sheikh's thought in, scientific and social activities.

This importance obliges every studier or observer of his ideas to notice the boarders of this topic area and stop at the background and in the context of the search for translations and interpretations profound implications for various dimensions in his project thought.

مقدمـــــة:

- تحتل قضية المرأة في فكر الشيخ الغزالي مساحة مهمة تترجم عند التأمل والقراءة الفاحصة دوافع ذلك الاهتمام وأبعاده الشرعية والدعوية والاجتماعية، والتي جذبها دور المرأة ومكانتها في الكيان الاجتماعي والمدني للأمة المسلمة.

ذلك أن الكيان الإنساني واحد لا يتجزأ والخطاب الإلهي – كما هو ثابت – موجه لمناط التكليف بغض النظر عن نوع الجنس، ومعنى ذلك أن مراد الله من الخلق واحد، وهذا ما تنص عليه بوضوح كليات الخطاب وعموم الرسالة، ومن ثمة فإن ما يفهم من بعض سياقات الوحي أن انقسام الجنس الإنساني إلى ذكور وأنوثة، قد ترتب عنه فروقات في الأدوار والوظائف لكنها لا تجعل الطرفين في موقع التنافر أو التصادم، فالغاية من وجودهما هو تحقيق الصورة المثلى لاستخلاف الإنسان عن الله في الأرض.

وفي قناعات الشيخ الغزالي الراسخة أن المرأة لم تنل حقوقها وحريتها كاملة، ولم تسترجع كرامتها المهدرة وإنسانيتها المسلوبة إلا بمجيء الإسلام "فهذا الدين أكرمها بنتاً حيث جعل حسن تعهدها وتعليمها ستراً من النار وطريقاً إلى الجنة وأوجب بلغة التكليف والإلزام إكرامها وحسن معاشرتها وهي زوجة واستوصى بها خيراً على كافة المستويات حيث جعل الجنة تحت أقدام الأمهات، وفتح أمامها باب المساهمة في خدمة المجتمع.

وسبل ترقية الحياة العامة، ولم يمنعها من خدمة الجيش والمشاركة في الجهاد إذا أطاقته، وقدرت على تحمل أعبائه ومشاقه، كما سوى الإسلام بين الجنسين في أعمال البر كلها، فأرجحهما عند الله ميزاناً ومكانة أخلصهما نية وأكثرهما سعيا، ويمكن دون تردد اعتبار أن شخصية المرأة برزت مع بزوغ شمس الرسالة وسمو مقاصدها الإنسانية العظمى في هذا الشأن"[1].

وقد بلغ من تدليل النبي ﷺ لزوجاته – أمهات المؤمنين – أن حرم على نفسه بعض المباحات إرضاء لهن حتى نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾سورة التحريم الآية 1. ولم يكن مثل هذا

الأمر النابع من مشاعر قلب كبير مألوفا بل ولا معروفا في نطاق العلاقة بين الجنسين قبل الإسلام ".

وهو ما يجعل الاتجاه إلى إقرار البعث الجديد لشخصية المرأة اجتماعياً وإنسانياً مع نزول الوحي الخاتم، من باب وصف وإرساخ حقائق التاريخ الإنساني فحسب"[2] فلم يميز الإسلام بينها وبين شقها الآخر في الإنسانية من جهة الإقرار المطلق بكمال إنسانيتها "فالمرأة في لغة خطاب الرسالة الخاتمة لها فرادة خاصة في المعاملة والتكريم "[3].

"فهي وإن كانت في مصطلح الحياة أنثى (بنتا أم أما أم زوجة) إلا أنها في منطق القرآن إنسان لا إنسانة، وعلامة التأنيث الصريحة لا تلحقها في حالاتها الثلاث، فهي عندما تولد تسمى (ولداً) قبل أن تسمى (بنتاً) وهي عندما تلد تدعى (أما) قبل أن تدعى (والدة)، وهي (زوج) في عقد النكاح الشرعي ولا يصرح بأنها(زوجة) إلا رفعا للالتباس أو رغبة في الإيضاح، حتى يحصل القصد كاملاً من العقد "[4].

ومن ثمة فإن ازدراء الأنوثة أو التجهم لها لا لشيء إلا لأنها أنوثة – كما يرى الشيخ الغزالي – "جريمة وبعد عن الصراط المستقيم، وتبرم بالفطرة مضاد ومغاير لتعاليم الإسلام وفقهه المشرق كما دلت عليه أحكام الشرع الحنيف ومقاصده الجليلة[5]، ويؤمن الشيخ الغزالي –من منطلق فهمه للقرآن الكريم- "أن الأنوثة والذكورة صفتان يستحيل أن تمدحان وتذمان لذاتهما، لأن مصدرهما واحد هو هذه النفس التي خلقها بارئها العظيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾سورة النساء آية 1، فالمرأة من ذات النفس التي كان منها الرجل ويترتب على هذا المساواة الإنسانية بينها وبين الرجل[6].

انطلاقاً من هذا المبدإ الذي يدل على عمق الفهم للحقائق في نصوص وأدلة الوحي الكريم وتؤكدها أيضا الأمثلة الحية في المجتمع الإسلامي الأول والتي تبلورت عن طريق الموقف والسلوك في تكريم الإنسان للمرأة وإعلائه لشأنها..

تأتي رؤية الشيخ الغزالي في فقه شؤون وقضايا المرأة ودعوته إلى نفض تراكمات قرون التخلف والانهزام الحضاري "التي أضاعت الكثير من حقوق المرأة وحبستها الأفهام السقيمة في سجن التقاليد الفاسدة "[7].

لقد اختفت التعاليم الصحيحة التي جاءت بها النبوة السابقة لتحل محلها تقاليد صنعتها أهواء البشر، فكانت عامل تشويه لحقائق الإسلام ونتيجة حتمية لمرحلة الضعف والتردي التي اكتنفت فكر وإرادة إنسان عصر الانحطاط والضعف: مما أدى إلى هيمنة قراءة تاريخية جامدة لوضعية المرأة في المجتمع العربي المعاصر.

من هنا تأتي أهمية الاهتمام الذي أولاه الشيخ الغزالي للمرأة كمرتكز حيوي في أي مشروع تنموي أو انبعاث حضاري وتغيير اجتماعي وخطوة إصلاحية. ولا يمكن فصل رؤية الشيخ الغزالي وفقه في قضايا المرأة عن سياق مشروعه الفكري العام.

وفي هذا الإطار يمكن اعتبار الشيخ الغزالي من القلة والقليلة التي وعت – وفي وقت مبكر جداً – خطورة وأهمية دور المرأة كدعامة استراتيجية في بناء الحضارة، وهي رؤية يخالف ما درج عليه الناس وألفوه من المواقف الفكرية والاجتماعية والعلمية لعلماء تقليديين: وبتتبعنا للشيخ الغزالي لقضايا والمرأة نجدها تمثل في حقيقتها عمق الاستيعاب الحي للفقه الإسلامي وروح التجديد الناتج عن قدراته النقدية البناءة التي مكنته من امتلاك القدرة الفكرية والنفسية والمنهجية على إبصار نواحي القوة والضعف في حركة المجتمع وأفراده والمساهمة الفاعلة في عمليات المراجعة والتقويم لتصويب الفهم برؤية جامعة بين الأصالة والمعاصرة.

إن تجربة الشيخ الغزالي الطويلة في ساحة الدعوة الإسلامية، وعمق فهمه للحياة الإسلامية، فضلا على سعيه الدائم للتوافق والانسجام مع الفطرة السليمة على النحو السليم الذي ترشد إليه نصوص الوحي الكريم. قد أثبت في وعيه المتيقظ أن الوضع الذي عليه المرأة المسلمة بعيد كل البعد عن منحى الهدايات

الذي رسمته تعاليم الإسلام السمحاء. من أجل ذلك تصدى للأفكار الغازية التي تريد الحؤول بين المرأة والالتزام بالإسلام، وبالقدر نفسه حارب التقاليد الموروثة الراكدة التي استباحت إنسانية المرأة المسلمة، وكانت عامل تطويح لدور المرأة في الكثير من المجتمعات والبيئات الإسلامية اليوم، فهمشت مواهب المرأة ومنعتها من استثمار قدراتها وكفاءاتها في حركة البناء الاجتماعي، والفعل الحضاري للمجتمع الإسلامي.

وفي اعتقادات الشيخ الغزالي الراسخة أن الحصانة الداخلية للذات هي أساس الكيان السليم غير القابل للاختراق والغزو من الداخل، ومن ثمة يرى الغزالي بأن المنهج الأقوم والأفضل هو غربلة التقاليد والأفهام، وضرورة الرجوع لتعاليم الإسلام الصافية في بلورة وبناء الشخصية المتوازية، ولا شك أن هذه الرؤية هي التي دفعته إلى الاعتقاد بكون النجاح الذي صادف الحضارة الغازية في هذه القضية يعود إلى ضعف المقاومة وإلى ضعف المقاومة وإلى غباء المدافعين!... " إنني عاصرت الأيام التي أدخل فيها طه حسين الفتيات في الجامعة، لقد كان التيار الديني يرى ذلك حراما!! بل إن تعليم البنات في مدارس خاصة بدأ بعد الاحتلال البريطاني لمصر، فإن التقاليد السائدة كانت تفرض الأمية على النساء باسم الإسلام!! ومع غزو المرأة للفضاء في العصر الحديث فإن أناسا عندنا يقاتلون دون أن تصلي المرأة في المسجد! ويقولون بيتها أولى بها، ويوم تتقرر هذه المواقف في الأرض الإسلامية فإن مجون الحضارة المنتصرة لن يجد أمامه عائقا أبدا[8]. المثير في القضية أن هذا الموقف المسيء للإسلام وقع في بلاد إسلامية كثيرة، ففي المملكة العربية السعودية وقبل وثبة الانفتاح الحضاري عندما "أمر الملك فيصل بتعليم البنات تحولت أسر عن البلد الذي أنشئت فيه أول مدرسة! وكرهت أن ترى هذه البدعة المنكرة! ولا يزال نفر من علماء الدين يكرهون وجه المرأة ويحملونها مسؤولية خروج آدم من الجنة كما زعم اليهود في كتبهم! ويرون الدين إمساك النساء في البيوت حتى يتوفاهن الموت، وحرمانهن من أي نشاط عام (...) هذه العقلية المختلة فرضت نفسها طويلا على دين الله، وبعد أن أعانت أقدار حسنة على زلزلة سلطانهم رأيناهم يستميتون في إحراج المرأة المسلمة. وتعكير مستقبلها بفتاوى مكذوبة على الإسلام[9] وقد استنكر الشيخ الغزالي

بقوة موقف المتدينين الذين هاجموا طه حسين – باسم الإسلام المفترى عليه – عندما سمح لعدد من الطالبات بدخول كلية الآداب في حين ساند تيار الانحلال والتغريب تعليم المرأة من أعلى المستويات ويعلق الشيخ الغزالي على هذه المهزلة قائلا: " أي إنصاف للإسلام في هذه المعركة السخيفة؟ الدين مع الجهل والإلحاد مع العلم؟ إلى متى نسمح لأناس يكذبون على الأرض والسماء باسم الدين؟ [10].

وعلى خلاف الكثير من العلماء المسلمين المعاصرين نجد الشيخ الغزالي يضع حركات تحرير المرأة –التي ظهرت في البلاد الإسلامية وتزعمتها نساء معروفات بولائهن للغرب – في إطار أكثر واقعية وإنصافا تكتنفه في ذلك مشاعر تعنيف الذات والنقد الداخلي وتصعيد اللوم والعتاب لمختلف مؤسسات المجتمع التربوية المتخصصة قبل مهاجمة الغير. لأن الفراغ الذي يمتد فيه وضعنا اليوم والذي سارت في نطاقه تلك الحركات منشؤه سوء عرض الإسلام وفي المقابل من ذلك التشبث ببعض تقاليد وعادات الجاهلية الأولى التي لا تزال تشغل مساحة مهمة من الذهنية الإسلامية إلى يومنا هذا.

لقد آلم ذلك الوضع الشيخ الغزالي وحز في نفسه فقال متأسفا: " من المحزن أن ينتقل ازدراء الأنوثة من تقاليد الأعراب والصعاليك في جاهليتهم الأولى إلى المجتمع الإسلامي ويظهر هذا الازدراء في أفكار وأحكام وأخلاق تشيع بين الناس وكأنها تعاليم دين! بل لقد حرف كلم عن مواضعه وأولت نصوص، وضعف صحيح وصحيح ضعف، لا لشيء إلا لغمط الأنوثة! وأكاد أجزم بأن سوء التربية في قرون مضت إلى يوم الناس هذا يرجع إلى جهالة النساء وعجزهن إلا عن الوظائف الحيوانية! كما أن تطلع قائدات النهضة النسوية إلى الغرب يعجبن ويقتبسن منه، يرجع إلى العرض المكذوب لتعاليم الإسلام أو بتعبير أدق إلى عرض عادات وأحكام جاهلية على أنها كتاب الله وسنة رسوله... إن جمهرة من علماء الدين وضعت صعوبات رهيبة أمام تردد المرأة في شتى المراحل ولم تستسلم إلا كارهة أو هي الآن تضع ذات الصعوبات أمام تردد المرأة على المسجد! أما بقية المقررات الإسلامية التي ذكرناها آنفا فهم يقاومونها كما يقاومون الكفر (!) من عشرين سنة كان القضاء الشرعي في مصر يأمر الشرطة باقتياد المرأة إلى (بيت الطاعة)

مادام الرجل قادرا على نفقتها، ضاربا عرض الحائط بكراهية المرأة للزوجية ومطالبتها بإنهاء هذه العشرة!! وكان أهل الزوجة يهربونها من بيت إلى بيت ويحتالون على إبطال هذا الحكم، ولغطت الصحافة بهذا التشريع المهدر لحقوق الإنسان، ونالت من كرامة الدين نفسه، ثم جاء أحد وزراء العدل فأصدر أمرا بعدم تنفيذ هذه الأحكام، وبذلك أنقذ المرأة من قسوة (الشريعة) عليها! وكتبت يومئذ مقالا نشرته (الأهرام) بحروف كبيرة شرحت فيه حكم (الخلع) وثبوته بالكتاب والسنة وقلت: إذا كرهت المرأة البقاء مع زوجها رفعت أمرها للقضاء وردت ما أخذت من مهر وحكم القاضي بفسخ العقد القائم أو إيقاع طلقة تنهي النزاع، ولا معنى لاعتقالها وجرها إلى أحضان رجل تبغضه بقوة الشرطة أو الجيش!! وحبذت ما فعله وزير العدل وقلت: إنه طبق الشريعة ولم يخرج عليها كما يزعمون... إن الذي كان يحدث هو بعض التقاليد البدوية المتسللة إلى فقهنا في غيبة الوعي الصحيح، وقد شعرت بحرج بالغ عندما صدرت من أحد العلماء فتوى بأنه يحرم على المرأة أن تقود سيارتها! قال لي صحافي أريب: إن الحضارة أمكنت المرأة من غزو الفضاء ولا يزال الدين يحرم عليها أن تقود سيارة على ظهر الأرض!! أليس من حق الناس أن يسوء ظنهم بالدين ويقصوه عن شؤون الحياة؟! قلت: ما حرم الإسلام على المرأة أن تقود سيارة وأحسب أن ظروفا محلية أوحت بهذا الحكم![11].

ويمكننا أن نلاحظ من خلال كلا الشيخ الغزالي – آنف الذكر – اعتماده على النقد الذاتي واللوم الداخلي كأداة فاعلة لترشيد مسار وهموم وانشغالات حركات النهضات النسائية من ناحية، ومن ناحية أخرى لكشف مواقفنا إزاء قضايا المرأة وواقع وضعها الحياتي، ومنطلق الشيخ الغزالي في هذا المنهج مبعثه الأساسي يكمن في أن من يترك الثغرات والنقائض تجتاح وتغزو كيانه الداخلي ينبغي أن لا يكون همه الأول في قضية العلاج، رد أنظار الآخرين المصوبة نحوه، وإنما في تقويم ما به من اعوجاج وانحراف، فهو السبيل الوحيد لعلاج ما نحن عليه من أوضاع معوجة وواقع مزري لا يحتكم إلى الإسلام في شيء، وهذا ما حاول الشيخ الغزالي تفهمه والتعامل معه بمنطق خاص ورؤية متميزة دون أن يغض الطرف عن الأبواق الناشزة التي سقطت أصالتها أمام الغرب فسعت إلى

محاولة تذويب الهوية الحضارية للمرأة المسلمة والانحراف برسالتها الاجتماعية عن أهدافها ومقاصدها السامية.

فلا غرابة إذن أن نجد الشيخ الغزالي يركز جهوده الدعوية في الداخل لمحاولة تلمس أسباب العلاج بغية الوقوف على مكمن الخلل. ذلك أن " تبذل النساء في هذا العصر بلغ حد السفه وهبط إلى درك سحيق من الحيوانية المذكورين. وصيحات الوعاظ لوقف هذا التيار تذهب بددا لماذا؟ لأن تناولهم لقضايا المرأة مشوب بالغموض أو الجهالة، متسم بالسلبية والعجز، محكوم بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان... وأغلبهم لو أمكنته الفرص لرد المرأة إلى البيت وغلق عليها الأبواب وحرمها مختلف الحقوق المادية، والأدبية وجعلها القدم العرجاء للإنسانية السائرة، أو الجناح المكسور للأمم الصاعدة! (...) إن الفكرة التي سيطرت على أدمغة نفر من المتدينين هي عزل المرأة عن الدين والدنيا معا مع اجتياح كيانها الشخصي والمعنوي، ولا تزال هذه الفكرة أملا يحركهم ويحملهم على ترويج أحاديث موضوعة أو واهية، وتكذيب أحاديث صحيحة أو حسنة، على تفسير القرآن بآراء لم يعرفها أئمته، ولا قام عليها مجتمع الأصحاب والتابعين!.. بل أستطيع القول: إن الجاهلية التي دفعت إليها المرأة الإسلامية بهذا الفكر القاصر جعلتها دون المرأة في الجاهلية الأولى... وقد لاحظت أن بعض المصلحين الذين اشتعلوا بتحرير المرأة قد جرأهم هذا الموقف على ارتكاب حماقات سيئة، بل جرأهم على ترك الإسلام!!"[12].

ومن هذه النظرة نفسها التي يرتكز عليها منهجه فيما يخص هذه القضية يثير هذا التساؤل في إحدى القضايا التي تهدف إلى جعل المرأة حبيسة الأفهام السقيمة والعقول الكليلة باسم الإسلام المظلوم.

ومن أجل تجلية صورة الإسلام الحقيقة تبرز جهود الشيخ الغزالي والرامية إلى ضرورة غربلة تقاليد وعادات المجتمعات الإسلامية ومحاولة إرجاعها إلى معايير الإسلام الصحيحة، علاوة على تحقيق بعض الآثار والسنن الواردة في قضايا المرأة، ومن ذلك رفض الشيخ الغزالي حديثا "أن الصلاة تقطعها المرأة والحمار والكلب الأسود وينضم إلى جمهور الفقهاء الذين رفضوا الاستبدال به على الرغم من صحة

سنده وعدالة رواته ورجاله"[13] ونفس الدافع أيضا الذي جعل الشيخ ينتصر- باسم الإسلام لحقوق المرأة في الميراث والتمتع في الطلاق، وحق اختيار الزوج دون إقصاء أو ضغط عليها. وحق المطالبة بفك العصمة الزوجية إن كرهت العيش في نطاقها، وحقها في المشاركة السياسية والاجتماعية والفكرية.. إلخ.

لقد أدرك الشيخ الغزالي برؤية - لنصوص الوحي وحدها- خطورة وموقع المرأة المسلمة في التركيب الاجتماعي، ومن ثمة فإنه لم يكن من الممكن التقدم بهذه الأمة نحو الصلاح والنهضة من جديد إلا برد الاعتبار للمرأة المسلمة، وتمكينها من حقها وهذا باتباع طريقتين: الأولى بترك كل ما نسب للإسلام زورا وجهلا من عادات وتقاليد - ما أنزل الله بها من سلطان- وهذا بهدم المعتقدات الفاسدة عن طريق الشرع والمنطق السليم. وثانيا ربط المرأة المسلمة بنصوص الشرع الأصلية لتعرف مالها وما عليها، بعيدا عن الأفكار المتجمدة، ودون الولاء إلا للواحد الأحد. وحرصا على تبليغ هذه الحقيقة بالذات نجد الشيخ الغزالي يدعو إلى تأسيس نهضة نسائية راشدة تلتزم حدود وتوجيهات الإسلام، فكتب بأدبه المعهود يقول: "نحن نلفت رواد النهضة النسائية إلى ما في التراث الإسلامي من نفاسة تعجب، وما فيه كذلك من أسانيد لقضاياهم النزيهة إذا أرادوا أن يربطوا حركتهم بالإيمان والمعرفة ويبتعدوا عن مزالق الهوى والتحلل"[14].

و تجيء قناعة الشيخ بهذا الفعل من منطلق حتمية نقد الخطأ بشأن قضايا المرأة وغلبة الغلو فيها، فالقصد من وراء ذلك - كما يعتقد الشيخ- إصلاح الكيان الإسلامي بالعودة إلى الأصل المفقود.. العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ لإبراز النموذج الذي تدعو إليه نصوص الوحي فيما يخص مكانة المرأة الاجتماعية قائلا: "أمتنا بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة لأن بعض المتدينين لا يعقلون قضايا المرأة، أو ينظرون فيها بحماقة وقلة فقه، ولو وكل الأمر إليهم لحبسوا النساء في البيوت فلا عبادة ولا علم ولا عقل ولا فكر.

ولا نشاط ولا شيء من هذا النوع من المتدينين الجهلة ينبغي أن يحرم من الكلام باسم الله! والنهضة النسائية الرشيدة تحتاج إلى أن يطرد نوع آخر من المتحدثين في قضايا المرأة وهو عبيد أوروبا الذين يريدون إشاعة الخنا في بلادنا،

والذين لا يعنيهم أمر العفة وأمر الأسرة ولا يبالون أن ينقلوا ما هنالك من عمى غريب!.. نريد تسليم النهضة النسائية إلى نساء عفيفات عاقلات محصنات أمرات بالمعروف ناهيات عن المنكر حافظات لحدود الله"[15].

إن ما نحتاجه هو نهضة إسلامية رشيدة نسائية - كما يرى الشيخ- تضع الأمور في نصابها وتعالج داء الأمة بدواء دينها الشافي لا بحلول غريبة تزيدها عللا وأسقاما، وتحرر المرأة المسلمة بقيادة مسلمات عالمات عاملات[16]. هكذا جاءت دعوة الشيخ الغزالي لإعادة تحرير المرأة المسلمة كمنطلق هام من موجوع منطلقات التجديد الفاعل الرامي إلى إعادة إحياء دور الأمة الإسلامية كشاهد وكشهيد حضاري. انطلاقا من معرفة الترسبات الداخلية التي تسيطر على العقلية الإسلامية وتمنعها من التجديد الحضاري.

ومن تنامي بوادر ومعطيات النضج والواقعية في منظور الشيخ الغزالي لشؤون المرأة بعده عن مجرد تكوين التركيب بين الصياغة الفقهية والمحكومة بضوابط ومحددات شرعية وبين إملاءات وقائع اجتماعية تحفزت للبروز والتشكل بواسطة جملة مستجدات وظروف جمعت عدة عوامل في إفرازها وإظهارها على الصعيد الواقع المتحرك، بل إنني أذهب إلى أبعد من ذلك لأقرر أن هذا المنظور الجديد شيخ الغزالي المستند على دعامة تجربة حية لصيقة لمعاناة المجتمع وظروفه المعيشية كان في أصله ومكوناته منظوراً مؤسسا على مرتكزات منهجية نابعة دون تعسف من طبيعة العقل المسلم المتمثل لمقاصد الشرع وروح التكليف.

يقول الشيخ الغزالي بفؤاد مكلوم: "ما الذي دعا الشيوعيات إلى التحصيل ضد قانون الأسرة في الجزائر والمطالبة بإلغائه؟ الذي دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون، تحدثوا عن موقف الإسلام من المرأة حديثا استفز أولى الألباب وبعث في النفوس الوجل من مستقبل يستولي فيه أولئك الإسلاميون على حكم! يقول أحدهم: الإسلام يرى أن المرأة إنما خلقت لتلد الرجال!! ويقول ثان: مقار النساء البيوت ما يخرجن منها إلا إلى الزوج أو إلى القبر! ويقول ثالث: يجب أن تظل الفتاة أمية لا تكتب ولا تحسب! ويرفق رابعا: حسبها إتمام المرحلة الابتدائية في

التعليم وما وراء ذلك لا داعي له! وبلغني أن طالبة ساذجة في أحد المعاهد قالت لأمها: أما يوجد دين آخر أرفق بنا من الإسلام؟؟.. لقد شعرت أنني أطعن في فؤادي عندما سمعت مقال هذه الطالبة!! إن الدين الذي كرم الإنسان ذكرا كان أو أنثى أمسى على ألسنة بعض الفتانين الجهال هوانا ينصف الإنسانية وتحقيرا لها!! لقد مكثنا بعض سنين في الجزائر نؤكد صدق العلامة ابن باديس عندما أيقظ الإسلام في صدور الرجال والنساء جميعا، مؤكدا أن الأمة لا تستطيع التحليق إلا بجناحيها من الرجال والنساء إن غلمانا سفهاء يحملون علما مغشوشا أو جهلا مركبا هجموا على الصحوة الإسلامية وكادوا يقفون مسيرتها بما ينشرون من ضلالات، ويشيعون عن الإسلام من إفك، وقد استغل الشيوعيون هوسهم الديني فقادوا مظاهرة إلى المجلس التشريعي منادين باحترام حقوق الإنسان وحفظ كرامة المرأة، ونحن المسلمين أعرف الناس بذلك كله، ولكن سفهاءنا غلبونا على الرأي، وليس أغيظ لنفسي من الدعاة الجهلة عندما ينفرون الناس من الإسلام بسوء تصويرهم له"[17].

عن الذي حمل الشيخ الغزالي على الاتجاه بهذه القضية هذا المنحى إنا عمق إدراكه لحجم الهوة التي وقعت تاريخيا- نتيجة لغلق باب الاجتهاد- بين تعاليم الإسلام الثابتة والمقررة بنصوص الوحي والنموذج العملي الحي لصورة المرأة المسلمة في العهد النبوي الراشد، وبين واقع المرأة المسلمة وكيفية تناول قضاياها خلال مراحل وقرون إسلامية مختلفة، فالانفصال الذي وقع بين النص والواقع قد أدى إلى ضعف فكري عام أقعد وشل عقل الأمة عن التزام المعايير الراشدة - النابغة من صميم تعاليم ديننا الإسلامي- في التعامل مع قضايا المرأة المتعددة. ونجم عن ذلك مجموعة من التقاليد حسبت على الإسلام والإسلام منها براء. واستغلت هذه التقاليد -التي نمت في ظل الجو الانهزامي للمسلمين- في اتجاه مصلحة الاستقطاب والجذب الفكري والنفسي للحضارة الغربية والثقافات الدخيلة.

وقد استغرقت دعوة الشيخ هذه إلى إعادة المرأة إلى إطارها الشرعي والفطري سنين الدعوة كلها التي زادت عن نصف قرن، هذه الدعوة التي كانت تتناول مشروع الأمة الإسلامية كله والمتمثل في "مشروع الإنسان"، الذي تجاوزت صناعته

القرون، مشروع الإنسان الذي يقوم على سياسة راشدة واعية تتدرج به من سنين الطفولة إلى الشباب إلى مرحلة الإنتاج والعمل إلى الشيخوخة الإيجابية...

الهوامش:

---

(1) محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة (باتنة/الجزائر: الزيتونة للنشر والإعلام، 1988) ص 103.

(2) محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية (مكتبة رحاب/الجزائر، د ط) ص 58 – 59.

(3) صبحي الصالح: الإسلام مستقبل الحضارة (بيروت: دار الشورى، ط1، 1982 م) ص 153.

(4) المرجع نفسه ص 153 – 154.

(5) المرجع السابق نفسه، ص 153 – 154.

(6) محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (منشورات سلسلة الوعي الإسلامي، الجزائر، ط8)، ص 44.

(7) يوسف القرضاوي الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن(القاهرة، دار الوفاء 1416 هـ/1994 م)، ص207.

(8) محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة (الطبعة الجزائرية الأولى) الجزائر دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، 1992 م، ص22.

(9) محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، الجزائر دار الكتب/1988 م ص 196. 195.

(10) محمد الغزالي: قضايا المرأة (مصدر سابق) ص20.

(11) محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين ط1، القاهرة: دار الصحوة، 1405 هـ/1985، ص 24- 25.

(12) محمد الغزالي: حصاد الغرور، دار الشهاب، باتنة (الطبعة الجزائرية الأولى) 1986 م ص 193، 194، 195.

(13) محمد الغزالي السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ط1 بيروت والقاهرة: دار الشروق، 1989/1409، ص 160- 161 وقد رد هذا الحديث الأئمة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم.. ونص الحديث رواه مسلم والترميذي.. وهم مخالف لرواية البخاري في صحيحه باب (من قال لا يقطع الصلاة شيء) ونصه: (حدثنا عمر بن حفص قال حدثنا أبي قال: حدثنا الأعمش قال: حدثنا إبراهيم عن الأسود عن عائشة ذكر عندها ما يقطع الصلاة:

الكلب والحمار والمرأة، فقالت شبهتمونا بالحمر والكلاب" والله لقد رأيت النبي ﷺ يصلي وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة، فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس أوذي النبي ﷺ فأنسل عند رجليه) صحيح البخاري موفم للنشر دار الهدى، 1991 م - ص 192 - 193.

(14) أنظر هذا ديننا لمحمد الغزالي ص 22.

(15) قطب عبد الحميد قطب: محاضرات الشيخ الغزالي.. (مرجع سابق) ص 159- 160.

(16) هبة رؤوف عزت: إسلامية المعرفة (مرجع سابق) ص 104.

(17) محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي هيرندن - فرجنيا أمريكا ط2 1412 هـ/ 1991 م، ص 48- 49.